أدموند سبنسر

Edmund Spenser

بقلم حضرة الكاتب المجيد صاحب التوقيع

ان الطبيعة الضنينة جدّ ضنينة بأفذاذ الرجال وعظمائهم . وانها لتتبع مقياساً هندسياً عجيباً حين تجود على الناس بمن ينقلهم من ذل الى عز ومن حالة الى حالة . « ومن(١) أجل ذلك قال فلوبير أحد أدباء الافرنج : إن قنطرة المرء وسكناه قصراً بندقياً منجداً (٢) أهون عليه من أن ينشيء صفحة واحدة عبقرية » !

مضى نحو مائة وخمسون عاماً على موت (شوسر) شيخ كتاب الانكليز ، حتى أنبتت التربة الانكليزية نابغة آخر يحمل علم الادب والشعر في عالم الفن الخالد. وهذا النابغة المعلم هو ادموند سبنسر ترب الشاعر الاكبر وليم شكسبير.

---

(١) منقولة من كتاب كلمة فى اللغة العربية للعلامة اسعاف النشاشيبي .

(٢) مزين مزخرف .

كانت الحياة الروحية والادبية مهيأة قبيل سبنسر . فقد انتعشت العلوم الاغريقية وزكا نورها ، وأصبحت العقول تجد لذة في ارتياد منهل العلم . ونقل الكتاب المقدس الى اللغة الانكليزية ، وطبع كاكستون (Caxton) أول كتاب في اللغة الانكليزية وأبحر (كولومبس) من أسبانيا يرتاد مجاهل العالم الجديد ويتكشف ماقبل يومئذ بأنه مجهول . تقدمت كل هذه الامور مجيء (سبنسر) وأخذت تعمل على تكوين عقلية شاعرة حساسة تكون خلاصة هذا التقدم. وفي عام (١٥٥٢) م . ولد (سبنسر) في مدينة لندن .

يروى أن والد سبنسر كان خياطاً فقيراً ، ينال من عمله مايبلغه الكفاف . وبالطبع لم تساعده حالته المالية من تعليم ابنه شأن الموسرين العظماء . وكان الصبي منذ نشأته يميل الى العلم وتصبو نفسه الى ورود مناهله مهما كلفه الامر من مشقة وعناء . فدخل احدى الكليات وأخذ يكتسب من خدمة أبناء الموسرين مايعينه على متابعة الدرس ، على نحو ماهو متبع اليوم في أميركا وبعض البلدان الاخرى . عكف على دروسه وعمله بجد ونشاط ، وعانى من جراء ذلك المشقات ، حتى اعتلت صحته ، الا ان ذلك لم يضعف من حماسته ، فقد كدّ وجد وشغف بالعلم شغفاً عجيباً ، دفعه الى تكبد كل مشقة . والدهر يقول : لن تنال الراحة الا بالتعب : ولا بد دون الشهد من إبر النحل .

وقال حبيب :

قد علمنا ان ليس الا بشق الـ ـنفس صار الكريم يدعى كريماً
طلب المجد يورث المرء خبلا وهموماً تقضقض الحيزوما
فتراه وهو الخلي شجيا وتراه وهو الصحيح سقيما

ولما بلغ العقد الثاني من عمره انهى دراسته الا ان صحته مازالت معتلة . فأشير اليه أن يعتزل الدرس فترة من الزمن ، فاعتزله مرغماً الى حين وشخص الى شمالي انكلترا يضيف جماعة من آله . تفتقت قريحة سبنسر في تلك العزلة وهبط عليه الوحي ، فأخذ ينظم شعره الخالد المعروف بـ The shepherds Calendar ، (يوميات الراعي) واصفاً الحياة القروية الخلابة في جميع أشهر السنة . ومن ثم طلب اليه أحد أترابه أن يزوره في لندن . فلبى

دعوته ، وقابل في لندن جمهرة من كبار الادباء أمثال (السر فيليب سيدني) الذي أصبح من أصدقائه المقربين ، (والارل أف ليستر) الذي اصطفاه سكرتيراً له . غادر سبنسر لندن الى (ارلندا) في خدمة (الارل) ، وطبع هناك أشعاره التي نظمها في شمالي انكلترا ، والتي طيرت شهرته في أرجاء البلاد .

احتلت الملكة اليصابات عرش الملك وأخذت تجمع حولها طائفة الشعراء والعلماء ، على نحو ما كان متبعاً عند بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين . فاجتمع حولها (سدني) والسر ولتر راليه وسبنسر والفورد باكون وشكسبير ... أنعمت الملكة الرشيدة على سبنسر بوظيفة (سكرتير) لحكومة ارلندا . فشاهد في تلك البلاد المجازر الدموية والدماء البريئة تهدر في سبيل الاستقلال والحرية . شاهد ثورة (الارلنديين) وقيامهم على الحكومة الانكليزية وتعسفها ، وشاهد النفوس الكبيرة المجاهدة تشترى رخيصة في سبيل الحياة الحرة ! شاهد كل ذلك وأثر في نفسه أبما تأثير . ولما هدأت العاصفة وأخمدت الثورة منح (سبنسر) قصراً جميلا منجداً بالعاج في مدينة (كورك) . طابت نفس سبنسر في ذلك القصر وهبط عليه الوحي فالقته شعره الخالد المعروف بالملكة الجميلة « The Fairy Queen » زار (السر ولتر راليه) صديقه سبنسر في قصره ، فقرأ عليه سبنسر الاجزاء الثلاثة من القسم الاول من شعره ، فطرب (راليه) أشد الطرب وطلب اليه أن يرافقه الى لندن حيث يطبع شعره الخالد . ولما اطلعت الملكة على شعره ابتهجت بشاعريته الفذة وطلبت الى (امين الخزنة) أن يجزل له العطاء كي يعيش في لندن في بحبوحة من العيش . ولكن صاحبنا (امين الخزنة) كانت يده مغلولة الى عنقه ، مقتصداً الى حد الشطط . فلم يجزل العطاء الى سبنسر كما طلبت الملكة ، واضطر سبنسر أن يعود الى قصره في (ارلندا) فعاد وفي نفسه مافيها من الحسرة ...

عكف سبنسر في قصره ليتم نظم شعره في الملكة الجميلة . وفي أثناء ذلك تزوج من غادة ارلندية جميلة كتب في تمجيدها طائفة من الشعر الرائع الذي يعد من خير ما انتجته قريحته : ومن ثم عاد الى لندن وطبع الاجزاء الثلاثة الاخرى من منظومه في الملكة الجميلة ، ومكث بضعة أشهر في بلاط الملكة اليصابات حيث كان يقابل

أشهر عظماء البلاد . ويغلب على الظن انه قابل شكسبير يومئذ وتحدث اليه طويلا ..

عاد بعد بضعة أعوام الى قصره في ارلندا ، وقد اشتعلت نيران الثورة مرة ثانية في أنحاء البلاد ، فحرق قصره ونهب والتهمت النيران أصغر أولاده ، وطرد هو وأسرته من المدينة ، ويقال ان جزءاً من شعره في « الملكة الجميلة » التهمته النيران في ذلك القصر ...

هرب سبنسر الى مدينة (كورك) ثم تابع سيره الى (لندن) ينشد حظه العاثر الذي عصفت به هوج الرياح ، ولكن أنى له تلك الطمأنينة وقد فقد ولده وقصره وأملاكه واضطربت مشاعر نفسه الحساسة ؟؟ فقبض في عام ١٧٩٩ في فندق قرب لندن، ودفن في « ويستمنستر أبي » حيث يدفن عظماء الانكليز ورجالاتهم الا فذاذ

* * *

لم يشأ القدر أن ينجز سبنسر شعره المعروف « بالملكة الجميلة » . فكل جزء من أجزائه — أو كل كتاب من كتبه كما يقال — يؤلف شطراً مستقلا بنفسه . ويروي سبنسر في شعره هذا أن ملكة جميلة تسمى جلوريانا (Gloriana) أقامت احتفالا فخما استمر اثني عشر يوما . وكان في كل يوم من أيام هذا الاحتفال يستجير بالملكة طارق غريب يشكو اليها مصيبة حلت به . فترسل الملكة أحد فرسانها الابطال لينرج كروب هؤلاء المستجيرين . فألف سبنسر كتابا مستقلا يحوي ما قام به كل فارس على حدته . واذن فكان الشعر مؤلفا من اثني عشر جزءاً أو كتابا ، لم يصلنا منها الا ستة .

يحدثنا سبنسر في الكتاب الاول عن مجازفات الفارس المعروف بالقديس جورج . ويقول إن غادة حسناء تدعى (أنا) (Una) ترتدي حلة سوداء دخلت بلاط الملكة وركعت أمامها مستعيذة بها من شرتنين مرعب حجز والديها ، وهما ملك وملكة . في قلعة منيعة . وكان وراءها (قزم) يقود حصانا مثقلا بالاسلحة ، جاءت به (أنا) التقدمه للفارس الذي ينقذ أبويها ، مدعية أن تلك الاسلحة السحرية هي التي تنجي والديها من الاسر ! طلبت الملكة الى الفارس (القديس جورج) أن يصحب الغادة البائسة ليفرج كربها . الا أن ذلك الفارس كان شديد الخوف ، فلما تقلد السلاح

السحري أصبح من أشجع الفرسان في البلاط الملكي ! ! ومن ثم اقتاد الغادة وأخذ يمعن في الجهاد ما شاءت له بطولته أن يجاهد ...

هذه صورة من تلك الصور الرائعة التي رسمها سبنسر ليضرب للناس مثلا أعلى في البطولة الخالدة والفروسية المملوءة بالمجازفات والمخاطرات ، على نحو ما نرى في أقاصيصنا المعروفة (بعنترة) وأبي زيد الهلالي والزير وما اليهم . ولعلك تدرك أن الهدف الذي كان يرمي اليه سبنسر من أقاصيصه هذه التي كان ينشدها القصاص في أنحاء البلاد ، هي اثارة اعجاب السامعين وبث روح البطولة التي يخالطها شيء من الخيال الرائع الفتان . . . . القاهرة اسحق موسى الحسيني

الزوجة — أراك ياعزيزي تزداد جمالا هذه الايام !

الزوج — نعم ياعزيزتي ! ذلك حالي كلما قرب عيد ميلادك

في الانتخابات البرلمانية : كان أحد المرشحين يفاخر ناخبيه بأنه يستطيع الرد على كل سؤال يلقى عليه بنعم اولا . فأقبل فلاح وقال له :

— أتسمح لي ان اسألك سؤالا ؟

— نعم

— كم الساعة الآن

حديث النعمة — يقولون انهم يتصلون ببعض العائلات الشريفة

— نعم ولكن بواسطة التلفون

شكا رجل الى جعفر الصادق أذية جاره له . فقال جعفر الصادق

— اصبر عليه

— قال : — يسبني الى الذل

— قال : — انما الذليل من ظلم

قالت الزوجة : — لقد أصلحت الثقب الذي في جيبك . فضحك زوجها وقال : شكراً لك ! ولكن كيف علمت بوجوده